بين فن التاريخ وفن الحرب

١١ ـ خالد بن الوليـــد *

فى حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهـاشمى

رئيس أركان الجيش العراق

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعـير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

فوصلت المقـدمة مساء الى القرب من ثنية اليمامة ولقيت مفرزة من بني حنيفة نياماً فى أسفل العقبة فباغتتهم وأسرتهم ؛ وكانت هذه المفرزة مؤلفة من ستين رجلاً بقيادة مجاعة بن مرارة أحد رؤساء بنى حنيفة

والروايات جميعاً متفقة على أن مجاعـة خرج من اليمامة على رأس سرية يطلب بثأر له فى بنى عامر وبنى تميم ، لأن بنى عامر منعوه من أن يتزوج خولة بنت جعفر . وبعد أن باغت بني عامر عاد بخولة ووقف فى أسفل العقبة مع رجاله ليبيت ليلته هناك وإذا المسلمون يباغتونه ويقودونه مع رجاله أسرى الى خالد

والذى يلوح لنا أن مجاعة كان يراقب مجئ جيش المسلمين من الثنية — أى عقبة الحيسية . ويظهر أن قوة المسلمين باغتته دون أن يستطيع التملص منها ، فلما وقف أمام خالد زعم أنه خرج للثأر

وتزعم الروايات أن خالداً قتل رجال مجاعة لتأكده كفرهم ، واستبقى مجاعة ليستفيد منه فى حركاته على مسيلمة . فيا ترى هل تواطأ مجاعة مع خالد على مسيلمة ، أو أنه تأكد نصر المسلمين فأراد أن يسوغ موقفه أمامهم فعرض الخدمة على خالد ؟ أو أنه خرج برجاله ليلتحق بجيش المسلمين فيدلهم على عورات أعدائهم ؟ ذلك مالا نعلمه العلم الأكيد . والمحقق أن مجاعة ظل محجوراً عليه فى معسكر خالد وقام بالوساطة بين خالد وبني حنيفة لعقد الصلح بعد انكسار جيشهم فى عقرباء ، فأفاد الفريقين بتلك الوساطة

ولابد أن خالداً استجوب مجاعة فاستقى منه جميع الأخبار الموثوق بها عن مسيلمة وجيشـه ، فعلم منه أن مسيلمة ينتظر وروده فى عقرباء

المعركة

فى رواية نقلها ابن حبيش أن خالداً لما تثبت من عسكرة جيش مسيلمة فى عقرباء شاور أصحابه فى الأمر فأشـاروا عليه جميعهم أن يتقدم نحو عقرباء . وكانت الأخبار تنم على أن طليعة الحنفيين يقودها الرحال ، وهو من رؤساء بني حنيفة ، فتقدم خالد حينئذ بجيشه نحو العدو . فجعل أبا حذيفة على الميمنة وشجاع ابن وهب على الميسرة ، وكان زيد بن الخطاب يحمل راية المهاجرين ، وثابت بن قيس يحمل راية الأنصار . وعزل خالد براء بن مالك من قيادة الخيالة وأحل محله أسامة بن زيد

أما جيش مسيلمة فكان مولياً وجهه شطر الشمال الغربى ومترتباً فى سهل عقرباء بين جبل صلبوخ ووادى حنيفة . فيستدل من ذلك على أن الأرض كانت صالحة لاتخاذ نظام القتال والحركة الخيالة ، وتنم الروايات على أن ريحاً جنوبية مغبرة هبت فى وجه المسلمين وزحزحتهم عن مكانهم فى القتال — أى أن جبهة المسلمين كانت موجهة نحو الجنوب الشرق . ويظهر أن قوة الرحال انسحبت لما رأت المسلمين قادمين نحوها . وكان جيش مسيلمة مرتباً على الأسلوب الشائع ومنقسماً الى ثلاثة أقسام : الميمنة والميسرة والقلب — ولم يكن الضعن خلفه لأن قرى بنى حنيفة كانت فى الخلف على مانعلم

وكان محكم بن طفيل — وهو من أجل رؤساء بنى حنيفة — شاناً على الميمنة ، والرحال على الميسرة ، وشرحبيل بن مسيلمة يقود القلب . فكان مسيلمة وراء القلب يراقب مجرى القتال

وبعد أن قضى المسلمون ليلتهم فى عقبة الحيسية — أى ثنية اليمامة — واستوثق خالد من أمر مجاعة ، تحرك الجيش صباحاً وكانت الشقة بينه وبين عقرباء مسير يوم . وفى رواية نقلها الطبرى أن الموقع الذى باغت المسلمون فيه مجاعة بن مرارة يبعد عن عسكر مسيلمة مسير ليلة . والحقيقة أن المسافة بين العقبة وعقرباء لا تزيد على خمسة وعشرين ميلاً — أى مسير يوم فى ذلك الزمن

(*) وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

والظاهر أن خالداً قضى ليلته التى سبقت يوم المعركة قريباً من جيش مسيلمة ، لأن المعركة بدأت صباحاً واستمرت الى العصر . وكان الموقع الذى اختاره كثيباً مشرفاً على اليمامة كما ينقله الطبرى . وسبق أن رأينا من وصف فلبى لرابية الابكيين أنها تشرف على وادى حنيفة وتتسلط على الأرض الممتدة الى الجنوب . فالأرض فى الشمال تتسلط على الأرض فى الجنوب ، وكان لوضع الأرض على هذه الصورة فائدة لجيش المسلمين

وليس لدينا معلومات عن تعبئة المسلمين فى ميدان القتال ، وتدل الأخبار على أن أبا حذيفة كان يقود الميمنة وشجاعا الميسرة ويزيد بن الخطاب القلب وأسامة بن زيد الخيالة . فهل كان كل من المهاجرين والأنصار على مجنبة من المجنبتين ، وكانت القبائل فى القلب ؟ أو أن المهاجرين والأنصار كانوا فى القلب وكانت القبائل فى المجنبتين ؟ أو أن المهاجرين كانوا فى القلب مع قبائل الحجاز ، وكان الأنصار على إحدى المجنبتين وكانت قبائل البادية فى المجنبة الأخرى ؟

هذه أسئلة تصعب الاجابة عنها . والواضح من مجرى القتال أن إحدى المجنبتين (ولعلها الميسرة) انهزمت فتلاها القلب ووصل الى الخيام فى الضعن . وأن أهل القرى — المهاجرين والأنصار وأهل الحجاز — عزوا هذه الهزيمة التى كادت تقضى على المسلمين الى أهل البادية . فلنا من ذلك أن أهل البادية كانوا فى الميسرة ، وكان المهاجرون مع بعض قبائل الحى فى الميمنة ، والأنصار مع البعض الآخر من قبائل الحجاز فى القلب . ويظهر أن الخيالة كانت فى الامام فانسحبت الى الميسرة لتراقب الوادى ، وكان الضعن وراء القلب وفيه الخيام والنساء . ووقف خالد بن الوليد وراء القلب يراقب سير القتال

صفحات القتال

نشبت المعركة صباحاً واستمرت الى العصر . فبذل الفريقان قصاراها لتغلب أحدهما على الآخر واقتتلا اقتتالاً شديداً . وكما يقول الطبرى كانت حرب لم يلق المسلمون مثلها قط

وجرى القتال فى ثلاث صفحات : تغلب الحنفيون فى الصفحة الأولى على المسلمين وأزاحوهم الى الضعن وكادوا ينتصرون عليهم . وفى الصفحة الثانية كر المسلمون راجعين فتغلبوا على أعدائهم فأزاحوهم من المحل الذى وصلوا اليه . وبعد أن تضافرت جهودهم استطاعوا أن يهزموا الحنفيين . وفى الصفحة الثالثة اعتصم الحنفيون فى الحديقة فحاصرها المسلمون من كل صوب ودخلوها عنوة وقضوا على البقية الباقية من الحنفيين

ونذكر فيما يلى مجرى القتال فى كل صفحة من الصفحات الثلاث :

الصفحة الأولى

بدأ القتال صباحا بتحميس القواد رجالهم بالكلمات المأثورة والخطب الحماسية . فنادى شرحبيل بن مسيلمة فى رجاله قائلاً : « يابنى حنيفة اليوم يوم الغيرة ، إن هزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن غير حظيات . قاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم »

وكان فى أول القتال براز من الفريقين كما جرت عليه عادة العرب ، فقتل فى هذا البراز الرحال بن عنفوة الذى كان فى طليعة الحنفيين قبل القتال . وكان على الميسرة قتلة زيد بن الخطاب ، ويظهر أن رؤساء آخرين من بنى حنيفة قتلوا فى البراز مما حمل الطبرى على القول : « قتل الرحال وأهل البصائر من بنى حنيفة » وبدلاً من أن يوهن هذا القتل عزائم بنى حنيفة شدد عزيمتهم فتدامروا وحمل كل قوم فى ناحية . ويلوح من مجرى القتال أن الضربة كانت قوية من الجانب الأيمن على ميسرة المسلمين فزحزحتها من محلها وتراجعت منكسرة لاتلوى على شىء . فأثر ذلك فى موقف القلب فرجع متقهقراً وبنو حنيفة يطاردونه الى أن وصلوا الى المعسكر فقطعوا أطناب الخيام

ومن الروايات ما يزعم أن ريحاً جنوبية مغبرة هبت فى وجوه المسلمين فضعضعت صفوفهم ، فاستفاد بنو حنيفة منها فهزموا المسلمين حتى أزاحوهم من محلهم وطاردوهم الى المعسكر فدخلوا فى الفسطاط فرعبلوه بالسيوف

والروايات متفقة على أن بعض الأعداء دخل خيمة خالد بن الوليد وكان فيها مجاعة مكبلا بالحديد قيد مراقبة أم تميم التى تزوجها خالد بعد قتله مالك بن نويرة . فأراد الحنفيون إنقاذ مجاعة فهموا بقتل أم تميم إلا أنه منعهم من ذلك . فقال لهم : « لاتتشاغلوا فى المعسكر ، ودونكم الرجال » ففى مثل هذا الموقف الحرج برز خالد الى الميدان شاهراً حسامه تشجيعاً للمسلمين ومنادياً بشعار « يا محمداه ! »

ويكاد المؤرخون جميعاً يتفقون على أن خالداً بفراسته وبطولته أنقذ الموقف . ولولا قيادة خالد وجلادة الصحابة الذين لقوا حتفهم بعد أن أظهروا للمسلمين أمثلة حسنة ، لدارت الدائرة على المسلمين ولا ريب

الصفحة الثانية

تبدأ الصفحة الثانية بدعوة الرؤساء من المسلمين الى الثبات فى محلهم والكر بعد ذلك على الأعداء

فثابت بن قيس الذى كان يقود الأنصار كان ينادى الأنصار قائلاً : « بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ، هكذا عنى حتى أريكم الجلاد » وقال زيد بن الخطاب الذى كان يقود القلب حين انكشف الناس عن رحالهم — أى المعسكر — : « لا تجوز بعد الرحال » وقام البراء أخو أنس بن مالك ينادى قائلاً « أنا البراء ابن مالك . هلم الى » أما أبو حذيفة الذى كان يقود الميمنة فكان ينادى قائلاً : « يا أهل القرآن ! زينوا القرآن بالفعال »

وفى مثل هذا الوقت العصيب تدبر خالد الموقف ففكر فى حيلة يعيد بها نخوة المسلمين ، ويزيد حماستهم ، ولا سيما لما رأى أهل القرى يحمون أهل البادية وهؤلاء يحمون أهل القرى

وتكاد الروايات جميعاً تتفق على أن القبائل من أهل البادية انهزموا أول مرة فألقوا الوهن فى صفوف المسلمين . والظاهر من نتائج المعركة أن أهل القرى ثبتوا « فاستحرّ بهم القتل » كما يذكر الطبرى . وكان التدبير الذى توصل اليه خالد لينقذ الموقف ويتغلب على عدوه منحصراً فى أمرين :

أولاً — فصل أهل القرى عن أهل القبائل ، ووضع كل فريق منهم فى جانب . فكان الأنصار والمهاجرون وأهل القرى الآخرون فى جانب ، والقبائل فى جانب آخر . لأن انهزام المسلمين أوقع الخلل فى ترتيب المعركة ، فاختلطت الميسرة بالقلب ، والقلب بالميمنة ، وتخلى الناس عن رؤسائهم

ثانياً — طلب من كل جانب أن يمتاز ، وذلك لما رأى أهل القرى يعزون سبب الخيبة الى القبائل ، والقبائل تعزو الخيبة الى أهل القرى . وفى هذا تناحر لدى الفريقين ، وإذا ما اشتد التناحر يؤدى الى التقاعس

فصرخ فى المسلمين طالباً منهم أن يمتازوا ليتبين من أين يأتى الخلل . وكان يريد بذلك أن تبرز الفرق فلا ينسب اليها ذلة الانكسار . ونال بذلك ما أراد . فامتاز أهل القرى والبوادى ، وامتازت القبائل من أهل البادية ، فوقف بنو كل أب على رايتهم كما يذكر الطبرى . فتولى خالد بنفسه قيادة صفوف أهل القرى ، فقاموا جميعاً قومة واحدة فقاتلوا قتال الأبطال . وكان خالد فى أول الصف يشجع المسلمين ببطولته ولا يقابله أحد إلا قتله . وكان يفتش عن مسيلمة ليقتله ، لأنه عرف أن الحرب لا تركد إلا بموته ، وأن بنى حنيفة لا تحفل إلا بقتله . وكان من أمر ذلك أن تشجع المسلمون فصدوا العدو

ويذكر الواقدى أن زيد بن الخطاب كان يحمل راية المسلمين فلما رأى أصحابه ينصرفون من أطرافه قال : « والله لا أكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتى ؛ عضوا على أضراسكم أيها الناس ! واضربوا فى عدوكم وامضوا قدماً » ولم يزل يشجع أصحابه الى أن قتل والراية فى يده ، فأخذها أبو حذيفة ، فجادل بسيفه حتى قتل . أما ثابت بن قيس فكان يحمل راية الأنصار ، فنادى فى قومه « العزة لله ولرسوله ولأحزابه . أروونى كما أريكم » ثم جلد فى الأعداء وقاتل حتى قتل . وتسلم راية المسلمين سالم مولى أبى حذيفة ، وظل يناضل عنها الى أن قتل ، فتسلمها آخرون وقتلوا

وإزاء هذه الجهود المتضافرة والأمثلة المشجعة تمكن المسلمون من أن يزحزحوا الأعداء من مكانهم حتى أزاحوهم تماماً ، فأخذوا يطاردونهم . وفى مثل هذا الحين أخذ محكم بن الطفل المدعو بمحكم اليمامة يشجع بنى حنيفة منادياً : « يامعشر بنى حنيفة الآن والله تستحقب الكرائم غير رضيات ، وينكحن غير حصينات ، فما عندكم من حسب فاخرجوه » . فقاتل قتالاً شديداً

أما أهل اليمامة فلما رأوا المسلمين يركبونهم صرخوا فى وجه مسيلمة قائلين له : « أين ما كنت تعدنا ؟ » فأجابهم قائلاً : « قاتلوا عن أحسابكم » ، ولما رأى المحكم أن الدائرة دارت على بنى حنيفة صاح فيهم : الحديقة ! الحديقة ! يريد بذلك أن يتحصنوا فيها ويقاوموا المسلمين . فانسحبوا إلى الحديقة واعتصموا بها . ويظهر أن المحكم لم يتمكن من الوصول اليها لأن عبدالرحمن ابن أبى بكر رماه بسهم فقتله

يتبع

لطفى الهاشمى